نسيج الطراز

عاشوري ساجية

أستاذ مساعد ب -المدرسة الوطنية لحفظ الممتلكات الثقافية وترميمها ـ الجزائر-

تعريف الطراز:

الطِراز بالكسر هو علم الثوب، معرّب؛ وطرّزه تطريزا أي أعلمه فتطرّز، وطرز في الملبس يعني تأنّق، فلم يلبس إلاّ فاخرا؛[1] وهي كلمة فارسية معربة، وأصلها في الفارسية: تراز، ومعناها النقش، وقد نقلت إلى العربية قديما منذ العصر الجاهلي، والطراز هو الموضع الذي تُنسج فيه الثياب الجيّدة، والجمع طُرُز وأطرزة. والطرّاز هو الرقام الذي يعمل الطراز، أو يطرّز الثياب ونحوها بخيوط الحرير أو بأسلاك الذهب أو الفضة؛ والطِراز بالكسر أيضا هو الثياب التي تُصنع للسلطان، ويُنقش بها اسمه، وتطرز بالحرير أو بالذهب بلون مخالف للون القماش أو الطرز الأخرى، تنويها بقدر لابسها من السلطان أو من يشرفه السلطان بلبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام أو غير ذلك، وكان السلطان يخصّص دارا لتصنيع الثياب السلطانية، تعرف بدار الطراز.[2]

وقد امتّد تعريف مصطلح "طراز" من " شريط كتابي مطرّز على قطعة قماش إلى أي شريط كتابي يصمّم على قطعة قماش بواسطة تطريز أو نسيج أو خياطة، وعلى كل شريط كتابي نُفّذ على أي قاعدة سواء كانت منحوتة على الحجر أو على الفسيفساء والزجاج أو على الخزف أو محفورة على قطعة خشب[3]، ثم بعد ذلك أصبح مصطلحا على الكتابات التي يوسم بها رسميا البردي بالمداد في مصانع ورق البردي، وكانت هذه الكتابات توسم بالألوان الأحمر أو الأخضر، ثم استخدم الطراز بعد ذاك للدلالة على المصانع نفسها، واختفى هذان المعنيان حوالي منتصف القرن العاشر الميلادي عندما بطلت صناعة ورق البردي.[4]

ويذكر ابن خلدون في كتابه المنتخب من "المقدمة وكتاب العبر" أنه "من بين شارات ملك السلطان التي تقتضيها الأبهة والبذخ، الالة[5] والرايات والسرير[6] والسكّة والخاتم والفساطيط[7] والسياج والطراز، فمن أبّهة

---

[1]- الفيروزآبادي مجد الدين محمّد بن يعقوب ، القاموس المحيط، مرتّب ترتيبا ألفبائيا وفق أوائل الحروف، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص.999.

[2]- رجب عبد الجواد ابراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموّثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، ط.1، دار الآفاق العربية، كلية الإداب، جامعة حلوان، 2002، ص. 302.

[3] - Yedida K. Stiliman et Paula sanders, Tiraz, in Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, t.X, Leiden, 2002, Brill, p. 573.

[4]- خورشيد إبراهيم زكي، طراز، في "دائرة المعارف الإسلامية، ج. 22، ط،" ترجمة أ. كرومان، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998، ص. 6803.

[5]- الالة هي قرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون.

[6]- السرير هي أريكة منضدة لجلوس السلطان.

[7]- الفسطاط هو بيت يُتّخذ من الشعر.

الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسمائهم أو علامات تختصّ بهم في طراز أثوابهم المعدّة للباسهم من الحرير أو الديباج[1] أو الابريسم[2]، تعتبر كتابة خطها في نسج الثوب إلحاما وإسداءا بخيط الذهب أو مايخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على مايحكمه الصناع في تقدير ذاك ووضعه في صناعة نسجهم فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز قصد التنويه بملابسها من السلطان فمن دونه أو التنويه بمن يختصّه السلطان بملبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته"[3] .تجري النقوش المكتوبة على طول حافة الرداء، أو تنتظم أحيانا في خطيّن أو أكثر حول الجزء العلوي من الرداء أو توضع حول الرقبة والأكمام وعلى الجزء العلوي للذراع (صورة 1) أو على الرسغ (المعصم)، وقد توضع على لباس الرأس؛ فلا تُستخدم هذه الكتابات حواشي للزخرفة فحسب، بل توضع أيضا في صلب نسيج الرداء، ويختلف عرضها اختلافا كبيرا، إذ يتراوح مابين أقلّ من 1 سم إلى 55 سم،[4] كما كان يغطي في القرن الثاني عشر مسطحات كبيرة إلى درجة أن أرضية الكتان لم يكن يُرى منها دائما سوى مواضع قليلة[5].

ينسج الطراز عادة في الديباج والإبريسم بخيوط من الذهب، فتكتب أسماء الحكّام وألقابهم المألوفة، وكثيرا ما تُقرن بكلمات أخرى تجرى مجرى الفأل أو السجلات، وفي بعض الأحيان يضاف إلى الصيغة التقليدية اسم مكان الصنعة واسم الوزير أو غيره من عمال الدولة القائمين على بيت المال أو على دار الطراز، وقلما يذكر اسم صانع القماش. وتقتصر كتابة الطراز في معظم الأحوال على اللقب التقليدي للحاكم دون اسمه مقترنا أو غير مقترن ببعض صيغ السعد والإقبال، وقد يقتصر على هذه الصيغ وحدها، مثل "عز لمولانا السلطان" (صورة 2)، كما توجد أحيانا تواريخ الكتابات بين هذه الطرز.[6]

---

[1]- الديباج هو ضرب من الثياب سداه ولحمته حرير.

[2]- الإبريسم: أصله في الفارسية أبريشم وهو يعني الثياب المتخذة من الحرير، كانت تنتجها دور الطراز في بغداد وتصدّر إلى الخارج.

[3]- إبن خلدون ع.، المنتخب من "المقدمة وكتاب العبر"، اعتنى بانتخابه ونشرة هنري بيريس بكلية الأدب بالجامعة الجزائرية، المطبعة الرسمية، الجزائر، 1947، ص. 41-42.

[4]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6804.

[5]- أرنست كونل، الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، بيروت، 1966، ص. 55.

[6]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6805- 6811.

صورة 1: طراز على الذراع من مقامات الحريري، العراق 634 هـ/ 1237م
(عن Encyclopédie de l'Islam T.X)

صورة 2: قطعة نسيج من الحرير تحمل عبارة "عز لمولانا السلطان"،
إسبانيا أو مراكش، 9هـ/ 15 م (عن زكي حسن، أطلس الفنون الزخرفية)

أنواع الطراز: هناك نوعان من مؤسسات الطراز، تتمثل فيما يلي:

أ.طراز العامة: وهي مؤسّسات تنتج النسيج لعامة الناس، فكانت هذه الصناعة تخضع لرقابة دقيقة من الدولة، تبدأ منذ قيام النساج بالعمل على نوله، وكان يختم على هذه المنسوجات بختم السلطان، ولا تباع إلاّ على يد سماسرة قد عقدت عليهم، وصاحب السلطان يثبت مايباع في جريدته، ثم تحمل إلى من يطويها، ثم إلى من يشدّها بالقش ثم إلى من يشدّها في السفط،[1] وإلى من يحزمها، وكل واحد منهم له رسم يأخذه، ويكتب على السفط علامته، وكان نصيب العمال من هذه الصناعة يبعث على الأسى، لايكفي أجرهم للوفاء بأقل الحاجات الضرورية للمعيشة،[2] وكانت أجرة النساج في أوائل القرن الثالث الهجري نصف درهم كل يوم.[3]

[1]- القشَ:عيدان دقاق من القصب أو الخزيران. السفط: وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء.
[2]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6817.
[3]- ثريا نصر، النسيج المطرز في العهد العثماني، ط.1،عالم الكتب، 2000، ص.24.

ب.طراز الخاصة: كان هناك دار لصنع الثياب الحريرية تزوّد الخليفة دون سواه بحاجته، وكانت هذه الدار من أملاك الدولة،[1] حيث كان المشرف على "الطراز" أو "صاحب الطراز" من أسمى رجال الدولة، وكان لزاما على مصانعه في أعراس الأمراء وفي حفلات أخرى أن تنتج آلافا من القطع في أقصر وقت،[2] ويُعدّ الوحيد الذي يتلقّى خلعته في احتفال خاص. وكان على رأس الإدارة موظف من رتبة عالية يختار من رجال الفقه أو الحرب، وكان الخليفة يخّصه بالرعاية والتقدير، ويباشر عمله تحت إمرته هيئة مختارة من الموظفين تنقل منتجات دور الطراز وتتخذ الوسائل اللازمة لهذا النقل. وكانت رتبة صاحب الطراز عظيمة، وكان يتقاضى راتبا سبعين دينار في الشهر، وكان صاحب الطراز حين يجلب المظلة وما يليها من خاص الخليفة إلى مجلس دار الطراز يقف الحاضرون أثناء هذا الحفل وهو جالس في رتبته ونائبه واقف على رأسه خدمة لذلك. وكانت دور الطراز تدر مبالغ كبيرة بفضل منتجاتها النفيسة.[3] ويبدو أن المبلغ المخصّص لدور الطراز، مبلغا مهمّا، رغم أن الإشارات إليه المتفرّقة التي وُجدت ضمن التقارير غير دقيقة وغير وافية.

ومن العوامل التي شجّعت على تقدم وازدهار صناعة النسيج في العصر للإسلامي تنافس الخلفاء والأمراء في إرسال الكسوة السنوية إلى الكعبة، وهي مثابة المسلمين وقبلتهم، وكانت تكسى بأعز أنواع الأقمشة في العالم الإسلامي.[4]

من الملاحظ أن الكتابات التي طرزت أو نسجت على قطع النسيج، غالبا ما تكون بالخيط الحريري الأحمر، وتفضيل هذا اللون على الثياب من طرف الخلفاء راجع إلى أن استعمال هذا اللون على مطرزاتهم يعتبر من العلامات المميزة للخليفة،[5] وكان هذا هو المتبع أيضا في المنسوجات الإسلامية. ولعل تفضيل هذا اللون يرجع إلى أن شارات الرومان القدماء (Clavi) كانت تطرز عادة باللون الأرجواني. وقد كان الحق المخول للرؤساء في إهداء الشارات العريضة (Latus clavus) لأعضاء مجلس الشيوخ والاحتفاظ بالشارات الأرجوانية للحكام، كما كان من الفخامة الملكية والحكومية ومن التقاليد السلالية، أن يحصل على أسماء الحكّام أو على علامات خاصة مطرّزة بالخيوط الحريرية؛[6] وكانت المنسوجات أيضا يتصدّق بها الخلفاء والأمراء والأغنياء على المحتاجين في المواسم والأعياد، وكانت لها مكانة ممتازة بين صادرات البلاد الإسلامية.[7]

تاريخ الطراز:

[1]- خورشيد، المرجع السابق، ص. 6818.
[2]- أرنست كونل، المرجع السابق، ص. 56.
[3]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6820.
[4]- ربيع حامد خليفة، الفنون الزخرفية اليمنية في العصر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، ط. 1، 1992، ص. 153.
[5] - Yedida K. Stiliman et Paula sanders, Op.Cit., p. 574.
[6] - Ibid., p. 575.
[7]- ثريا نصر، المرجع السابق، ص.24.

يذكر ابن خلدون أن ملوك الفرس قبل الإسلام قد وضعوا صور الملوك أو الرسوم والصور التي رسمت خصيصا لهذا الغرض على الطراز الذي توشى به الثياب وأن الحكام المسلمين قد استبدلوا بهذه الصور والرسوم كتابات بأسمائهم وعبارات يتفاءلون بها،[1] وقد ورث المسلمون عنهم هذه العادة، وأول من نقل الطراز إلى العربية من ملوك المسلمين هو عبد الملك بن مروان الأموي (26-86هـ/ 646-705م)، خلال فترة الإصلاحات (التعريبات)، ولكن بدلا من استخدام الصور كتبوا أسماء خلفائهم مصحوبة بصيغة خاصة من صيغ الدعاء أو المدح، واعتبروه من علامات سلطانهم[2]؛ وأبرز مثال على ذلك هو قطعة الطراز التي تحمل اسم صاحب العمامة صمويل بن مرقص (صورة 3) وأسلوب زخرفتها القبطي أنها من صناعة مصر وهي البلد التي خضعت للإسلام وكانت تكتب بالإغريقية وأمرت أن تكتب بالعربية وإلاّ حق عليها العقاب.[3] والراجح أن احتكار الحكومات صناعة النسيج لم يبدأ في الإسلام، فقد كان معروفا إلى حد ما في مصر الفرعونية، وفي إيران وفي بابل وآشور وبيزنطة، ثم انتشر في معظم الأقطار الإسلامية؛[4] وكانت تُرتدى هذه الأثواب خلال القرون الأولى للدولة الإسلامية من طرف الحكّام وأعضاء الحاشية أي أصحاب الخلع.[5]

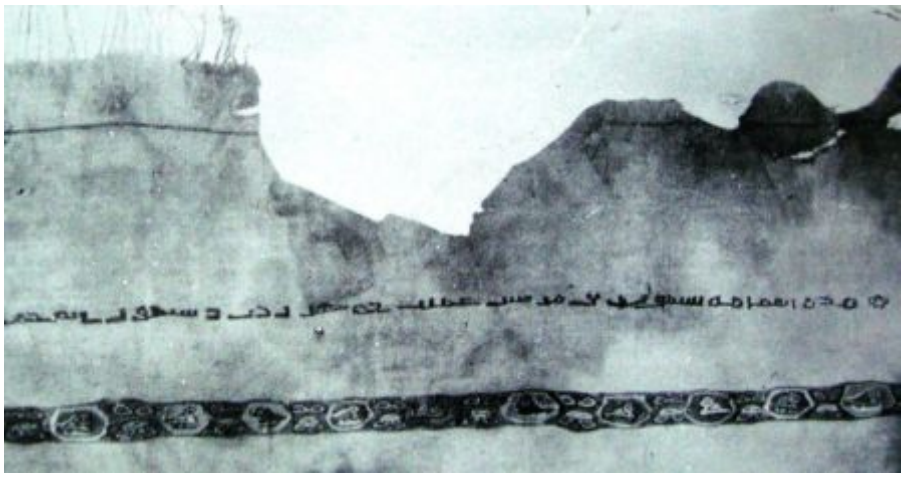

صورة3: قطعة نسيج من عمامة سمويل بن موسى، مصر، 188هـ/ 804 م

في متحف الفن الإسلامي، مصر، (عن زكي حسن، فنون الإسلام)

لقد اختلف المؤرخون القدماء منهم والمحدثون، في تعيين الموطن الأصلي الذي نشأت فيه مصانع الطراز، وانقسموا إلى فريقين: الفريق الأول وعلى رأسه ابن خلدون، يقول بأن مصانع الطراز فارسية الأصل لأنه كان من عادة ملوك إيران قبل الإسلام، أن يزيّنوا ملابسهم بصور الملوك وبأشكال معيّنة

[1]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6825.
[2]- ثريا نصر، المرجع السابق، ص.25.
[3]- سعاد ماهر، النسيج الإسلامي، القاهرة، 1988، ص. 28.
[4]- زكي حسن، فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، 1981، ص. 346.
[5] - Yedida K. Stiliman et Paula sanders, Op.Cit. p. 573.

تمييزا لها عن غيرها. والفريق الثاني وعلى رأسه كرابك والدكتور أرنست كونل (الفنون الإسلامية)، فقد لجأ الاثنان إلى مصانع جنسيم في مصر البيزنطية، فوجدا قطعا من النسيج المصري عليها أسماء وبلاد وأشخاص، وكانت هذه المصانع تحتفظ بسر نظام العمل بالنسبة لبعض الأقمشة الغالية. وقد انتهى سرجنت في بحثه إلى أن مصانع الطراز الحكومية، كانت توجد في الدولة الساسانية والبيزنطية، ولما لم يكن للعرب فن خاص يتعارض مع الفنون التي كانت موجودة في البلاد التي فتحوها، فقد قبلوا الفنون والصناعات على ما هي عليه.[1]

خلال عهد الأمويين والعباسيين كانت الدور المعدّة لنسج أثوابهم موجودة في قصورهم، وتسمى دور الطراز، والقائم على النظر فيها يسمى "صاحب الطراز"؛ وكان هذا النظام معمولا به في عهد الخلفاء الأمويين بالأندلس وخلفائهم، وفي عهد سلاطين المماليك بمصر وعند معاصريهم من ملوك الفرس في المشرق، ولم يبطل هذا النظام إلاّ عندما اضمحلّت الدول الكبرى.[2]

كان إهداء الأثواب المحلاّة بهذه الطرز من حق من في يده السلطة، وهو حق يماثل حقه في إصدار السكة. وشاعت هذه السنّة أوّل ماشاعت في عهد الإسلام، فقد جرت العادة على أن تكون البراءة[3] التي يقام لها كبار عمال الدولة في مناصبهم مصحوبة بكسوة تشريف، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كان هؤلاء العمال يتلقون أيضا كسوة تشريف مرة على الأقل في السنة؛ وكان المماليك وكبار عمال الدولة في بلاط السلاطين يتلقون عادة كسوة تتناسب ورتبهم مرتين في السنة.[4]

لم يكن بدعا أن يحافظ الخلفاء على هذا الإمتياز الهام من امتيازات الملك وأن يحيطوه بكل الضمانات خشية استعماله في غير وجهه، ويتبّن لنا مدى الأهمية التي كانوا يولونها للطراز وإعداده مما جاء في وصية هارون الرشيد في القسم الخاص بجعل إقليم خرسان للمأمون، فقد نصّ فيه على دور الطرز بصفة خاصة إلى جانب الخراج والبريد وبيوت المال؛ وذكر اسم الحاكم في الطراز دليل على سلطانه كما هو الشأن في الخطبة. ويعتبر حذف اسم الخليفة من على قطع الطراز أو السكّة بمثابة تمرّد على الحاكم، مثلما قام به المأمون أين استغنى عن اسم أخيه الأمين (محمد ابن هارون العباسي الملقب بالأمين) على الطراز والسكة حين أظهر تمرّده عنه سنة 194 هـ/ 809-810 م، كما حذف ابن طولون اسم الوصيّ الموفّق عن السكّة وأثناء الخطبة، سنة 269هـ/ 882-883م، لما قطع علاقاته مع بغداد. وهذا التصرّف كانت له نتائج سلبية وسيّئة، بما أنّ هذه الأردية المطرّزة باسم الخليفة أو الكسوة تُبعث سنويا إلى الكعبة لتغطيتها والتي كانت تُنتج في دور طراز مصر، وعدم وجود اسم الخليفة عليها سوف يُلفت نظر الحجّاج القادمين من كل بقاع الدولة الإسلامية.[5] وكان إذا تولّى الحكم خليفة جديد أثبت اسمه في كتابات الطراز.

---

[1]- سعاد ماهر، الفنون الإسلامية، ط.2، مصر، 2002، ص. 110-111.

[2]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6804.

[3]- البراءة: الإعذار والإنذار.

[4]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6811.

[5] - Yedida K. Stiliman et Paula sanders, Op.Cit., p. 576.

الطراز. ولم يؤخذ بذلك كتابات المنسوجات وكساوي التشريف فحسب، بل أخذ به أيضا في لفافات أوراق البردي، وكثيرا ما كان يذكر اسم الوزير وذلك في المراسم، ولكن قلمّا كان يذكر اسمه في كتابات الطراز على كساوي التشريف؛[1] غير أن حقوق الخليفة في السيادة لم تكن تتجلّى في كتابات الطراز على الملابس فحسب، بل إنّ الحق في كسوة الكعبة في الأصل من اختصاصات الخليفة دون غيره. وكان العباسيون يرسلون كل عام الكسوة من بغداد إلى مكّة، وكانت هذه الكسوة تصنع في كثير من الأحيان بمصر[2].أول خليفة أموي أُشير إليه بشكل خاص من خلال المصادر العربية والذي أنشأ دور الطراز هو "هشام بن عبد الملك"، الذي عُرف بأناقته وحبّه الكبير للأثواب وقطع القماش والزرابي ذات الجودة؛ ويُذكر أيضا أنه كان يرتدي أثواب حريرية مزّينة بأشرطة مطرزة أو أثواب ذات خطوط[3]. لايوجد إلا خليفة واحدا من البيت الأموي، لعله مروان بن محمد، ذكر اسمه على قطعة من حرير من صنع أخميم[4] وعليها الكتابة الأتية: [عبد] الله مروان أمير [المؤمنين]. وقد انتقل مع المنسوجات الإسلامية، التي كانت تستوردها أوروبا بكميات كبيرة. وكان أنفورتاس Anfortas منذ عهد بارسيفال Parcifal يضع جدائل طراز عربي على لباس رأسه. ومن أعجب الأمور أن نجد ملابس كبار رجال الكنيسة وقد زيّنت بجدائل طراز تشمل أدعية إسلامية.[5]

وإن كان الأمويون والعباسيون قد عنوا عناية كبيرة بصناعة منسوجات الطراز ومراعاة الحقوق المتّصلة بها، فإن أهمية هذه المنسوجات قد ازدادت في عهد الفاطميين (صورة4 و5)، فقد كان إلى جانب مصنع الدولة الشهير بالإسكندرية المسمى دار الطراز، مصنع آخر بالقاهرة يحمل الإسم نفسه، أنشيء في عهد الخليفة العزيز بالله (365- 386هـ/ 975- 996 م) باسم الوزير أبي الفرج يعقوب بن يوسف،[6] وكان يُعرف أيضا باسم دار الديباج، لأن الديباج كان يُصنع به[7]. والظاهر أن الأمور قد تبدّلت تبدّلت بعض الشيء في عهد سلاطين المماليك، فلم تعد المنسوجات وثياب الطراز تُصنع في المصانع ودور الطراز في القصر، فقد أوقفت الدولة إنتاجها في منشآتها الخاصة، وأصبحت تطلب حاجتها، التي اقتصرت على الكساوي المنسوجة من الحرير والذهب الخالص، من بيوت النساج.[8]

---

[1]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6812.
[2]- نفسه، ص. 6813.
[3] - Yedida K. Stiliman et Paula sanders, Op.Cit., p. 576.
[4]- أخميم: قرية صغيرة بصعيد مصر.
[5]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6827.
[6]- هو أول وزير في العاصمة القاهرة بعد بنائها ومن كبار الوزراء في الدولة الفاطمية
[7]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص. 6820.
[8]- نفسه، ص. 6821.

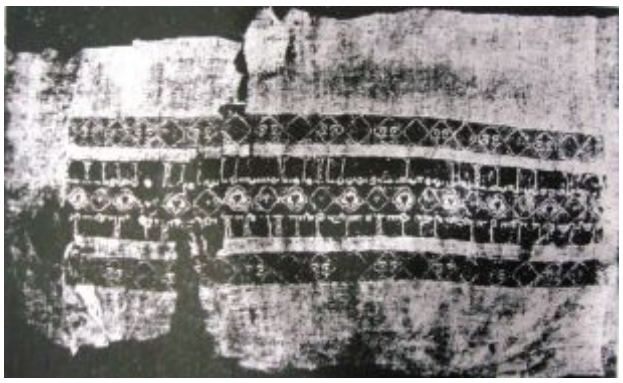

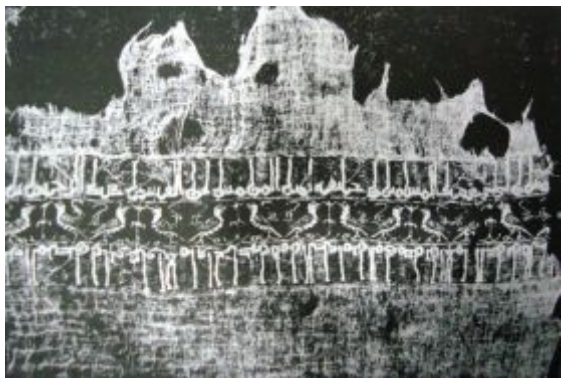

صورة 4: شريط من كتان باسم الخليفة الفاطمي صورة 5: قطعة من الكتان والحرير باسم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، بداية 5هـ/ 11م لمستنصر بالله ووزيره بدر الجمالي، نهاية 5هـ/ 11م

دار الآثار العربية بالقاهرة، (عن زكي حسن، فنون الإسلام)

في أواخر القرن 6هـ/12 م، تطوّرت دور الطراز تطوّرا كبيرا فاق دورها التي أُنشئت من أجله، فأصبحت ذات أهداف سياسية داخل الحكم وظاهرة اجتماعية واقتصادية واسعة الإنتشار.[1] وكان بآسيا الصغرى دار طراز في بلاط السلاجقة[2]، ينتج قماش الديباج المطرز بالذهب.[3]

ولم يكن نظام مصانع الطراز الملكية مقصورا بطبيعة الحال على مصر وحدها، بل كانت هذه المصانع موجودة أيضا في غيرها من الأقطار، كمصنع بالرمو بصقلية، التي كانت تحت حكم النورمانديين، إذ كان بها مصانع حكومية تقوم بصنع الحواشي الذهبية والأشرطة المشغولة بنماذج من الحرير على قاعدة مقصّبة أو بالعكس. ونشاهد في موضوعاتها الطابع البيزنطي أكثر وضوحا من الطابع الإسلامي. هذا يفسر أن المصنوعات كان يُراد بها الغرب على الأخص لكي تكون حواشي لأردية القداس الثمينة، على حين يظهر أن التطريز اليدوي بقي في أيدي المسلمين وحدهم،[4] كما كانت مدينة المرية بالأندس من أهمّ مركز لهذه الصناعة، فكانت أيام يوسف بن تاشفين (دولة المرابطين)، بها من طرز الحرير 800 طراز، يصنع فيها الحلل والديباج والسِقلاطون[5] واالأصبهاني[6] والجرجاني[7] والستور المكللة

[1] - Yedida K. Stiliman et Paula sanders, Op.Cit., p. 577.

[2]- السلاجقة: أسرة من الأمراء الترك حكمت أقاليم مترامية الأطراف في آسيا الوسطى والصغرى من القرن 11م إلى القرن 13م.

[3]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص.6822.

[4]- أرنست كونل، المرجع السابق، ص. 56.

[5]- السِقلاطون: نسبة إلى مدينة من بلاد الروم، وهو نوع من الملابس الحريرية الفاخرة الملونة بالألوان القرمزية وغيرها المنسوجة بخيوط الذهب، وكان يُصبغ غالبا بلون أزرق داكن في بلاد العرب، مراكز صناعته بغداد وتبريز.

[6]- الأصبهاني أو الأصفهاني: ضرب من المنسوجات الحريرية نسبة إلى مدينة أصفهان الفارسية، وكانت مدينة المرية بالأندلس من أشهر المدن إنتاجا لهذا النوع من المنسوجات.

[7]- الجرجاني: ضرب من الأقمشة الحريرية السميكة المنسوبة إلى مدينة جرجان الفارسية لاشتهارها بهذا النوع من الحرير، كان معروفا لدى الأندلسيين، وقد اشتهرت مدينة المرية بإنتاج الثياب الجرجانية الجيّدة.

المكللة والثياب المعيّنة والخُمُر والعتّابي[1] والمعاجر وصنوف أنواع الحرير،[2] إضافة إلى مرسية وإشبيلية وغرناطة ومالقة، والتي كانت بها دار لصنع ثياب الديباج المطرزة بالذهب[3] (صورة 6).

صورة 6: نسيج حريري من الأندلس، 6 أو 7 هـ/ 12أو 13 م،
متحف الفنون التطبيقية، برلين (عن زكي حسن، فنون الإسلام)

وقد انتشرت في الأندلس صناعة المنسوجات منذ دخلها العرب وبلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار في خلافة الأمويين في المغرب، فقد عثر على قطعة من الحرير منسوجة بطريقة القباطي وبها شريط طراز مما يقطع بوجود نظام مصانع الطراز بالأندلس. وتحتوي القطعة إلى جانب شريط الطراز على شريط زخرفي قوام زخرفته جامات تضم رسوم آدمية وحيوانية ونباتية. ونص شريط الطراز كما يلي: "بسم الله الرحمن الرحيم بركة من الله واليمن والدوام للخليفة الإمام عبد الله هشام المؤيّد بالله أمير المؤمنين". وقد حكم الخليفة هشام الأندلس بين عامي 344-390هـ/ 974-1009 م. (صورة 7)

صورة 7: جزء من رداء عبد الله هشام، الأندلس.

وفي القرنين السادس والسابع للهجرة أنتجت الأندلس أنواعا من المنسوجات الحريرية المركبة من الديباج والدمقس[4] تشبه من ناحية الأسلوب الزخرفي منسوجات صقلية المعاصرة وكذا النسيج البيزنطي مع احتوائها على كتابات عربية مكونة من عبارات دعائية مثل "البقا لله".

---

[1]- العتّابي: صنف من قماش خشن يُتخذ من الحرير والقطن مخطط بحمرة وصفرة، وقيل هو نسيج متموج متلمع.
[2]- شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والأثار الأندلسية، ج. 1، دار الفكر العربي، د.م.، د.ت.، ص. 118.
[3]- خورشيد إ.، المرجع السابق، ص.6822.
[4]- الدمقس: نسيج غني بالزخارف من القطن أو الحرير أو الكتان أو الصوف.

أما في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، فقد أخرجت مصانع الأندلس نوعا من المنسوجات تشبه زخارفها رسوم الزخارف الموجودة بقصر الحمراء، ومن ثم فقد نسبوه إلى طراز هذا القصر. وقوام زخارف هذا النسيج أطباق نجمية تشبه تلك الموجودة في الخشب، وكذا أشرطة متداخلة وجدائل وأشكال هندسية متعددة. وقد احتوي هذا النسيج على أشرطة من الكتابة بالخط الكوفي ذي الحروف الزخرفية المتشابكة والخط النسخي المغربي.

أما عن المواد الخام التي استعملت في منسوجات الأندلس، فقد كانت في أول الأمر الكتان والحرير والصوف ثم انتشر ابتداء من القرن الرابع الهجري الحرير، فقد أشار مؤرخو العصور الوسطى إلى أن تربية دودة القز دخلت الأندلس في القرن الرابع على يد أسرة وفدت من الشام. وقد ازدهر استخراج الحرير في الأندلس ازدهارا كبيرا حتى أنها كانت تصدر منه إلى معظم دول أوروبا بل وبلاد العالم الإسلامي.[1]

أما في بلاد المغرب فأشار القلقشندي إلى الطراز هناك، فذكر في لبس سلطان مملكة تونس، ولبس أشياخه، وسائر جنده، وعامة أهل بلده: "...له عمامة كبيرة من صوف وكتّان فيها طراز من حرير. ولا يتعمّم أحد من أهل دولته قدرها في الكِبر..."، "وغاب لبسه ولبس أكابر مشايخه من قماش عندهم يسمّى السفساري[2]، يُعمل عندهم من حرير وقطن أو حرير وصوف رفيع جدا، وقماش يُعرف بالتلمساني يعمل بتلمسان، إما صوف خالص أو حرير خالص: مختّم وغير مختّم."[3] "... أنه يلبس الثياب الصوف الرفيعة، ذوات الألوان البديعة، وأكثر مايلبس المختم الممتزج من الحرير والصوف..."[4]

وكانت إفريقية الأغلبية (184-296هـ/ 800-909م) تصدّر النسيج والأبسطة والأقمشة الفاخرة إلى بغداد، وتعتبر فترة ابراهيم بن الأغلب وابنه زيادة الله الأول من أزهى فترات دولة الأغالبة، حيث ساد الرخاء الاقتصادي في عهدهما وضربت الدنانير والدراهم على نمط الطراز العباسي، كما دوّنت الدواوين، وكذلك دار الطراز التي كانت تنتج ما يرسله الأمير من الكساوي والإنعامات إلى مشاهير وكبار رجال الدولة في المناسبات.[5]

أشار ابن خلدون إلى ذلك خلال الفترة الموحدية، قائلا: "...ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة لم يأخذوا بذلك أوّل دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها من إمامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك من أعقابها آخر الدولة طرفا لم يكن بتلك النباهة. وأما لهذا العهد فادركنا بالمغرب في

---

[1]- سعاد ماهر، النسيج الإسلامي .....ص. 123.
[2]- السفساري: ما يُعرف بالحايك حاليا.
[3]- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة اللأنشا، ج. 5، لبنان، بيروت، د.س، ص. 137.
[4]- نفسه، ص. 138.
[5]- ابن وردان، تاريخ مملكة الأغالبة، القاهرة، 1988، ص. 44.

الدولة المرينية (614-869هـ/ 1217-1465م) لعنفوانها وشموخها رسما جليلا لقنوه من دولة (ابن الأحمر) نعاصرهم بالأندلس واتّبع هو في ذلك ملوك الطوائف فاتى منه بلمحة شاهدة بالأثر..."[1]

<u>الجانب الأثري</u>:

من الناحية الأثرية، يُعتبر تحديد تاريخ النسيج أمر سهل، بل أن بعضه محدد التاريخ بدقة، مثل قطع الطراز،[2] إذ أن بعض القطع المستعملة كأكفان بقيت سليمة في قبور الفسطاط؛[3] وقد أُشير إلى أن أقدم قطعة نسيج إسلامية معروفة إلى الآن هي تلك القطعة التي ترجع إلى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (86 – 96 هـ/ 705-715م)، وأُرّخت هذه القطعة بسنة 88 هـ/ 705 م، وبها زخارف منسوجة بطريقة القباطي[4]. وقد شك بعض علماء الفن الإسلامي في صحة هذا التاريخ بحجة أن أسلوب الزخرفة يشهد بأنها متأخرة عن القرن الأول الهجري، واعتقدوا أن الثقب الموجود في نهاية نص الكتابة بعد رقم العشرات كانت به كلمة مائتين. وقد رد الدكتور زكي محمد حسن بالنفي لأن الثقب لا يتسع لأربعة حروف فضلا عن أنه ليس من المستحيل أن توجد مثل هذه الزخرفة في القرن الأول الهجري.[5]

ولقد وصل إلينا من العصر المغربي قطعتان، إحداهما تحمل اسم الخليفة مروان من طراز افريقية (تونس)، والأخرى تحمل اسم الخليفة المعز لدين الله من عمل مدينة المنصورية، والأولى منسوجة من الحرير وعليها كتابة تشير إلى أنها من طراز افريقية، وترجع إلى عصر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. وهي تزدان بشريط من الزخرفة وسطر من الكتابة يتضمن اسم مروان أمير المؤمنين، كما يتضمن عبارة "طراز افريقية". (هذه القطعة مكوّنة من جزأين، واحد معروض في متحف فيكتوريا وألبرت وعليه عبارة "مروان أمير المؤمنين"، وقد يكون مروان بن الحكم الخليفة الأموي (64-65هـ/683-684م) وقد يكون مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين (127- 132 هـ/ 744- 749م)، ومن هنا تؤرخ بالمدة الواقعة بين سنتيّ 64هـ-132هـ). وهذا الطراز هو في الغالب الطراز الذي ساد في مدينة القيروان التي قامت على أنقاض مدينة قديمة من العصر الروماني والبيزنطي، وقد كان بها مصنع نسيج حكومي بيزنطي تغيّر اسمه في العصر الإسلامي فأصبح يسمى دار الطراز. (صورة 8)

---

[1]- إبن خلدون ع.، المصدر السابق، ص. 41-42.
[2]- عفيف البهنسي، الفن الإسلامي، ط.1، دمشق، 1986، ص. 396.
[3]- نفسه، ص. 399.
[4]- ثياب من كتان بيض رقاق، كانت تنسج بمصر، وهي منسوبة إلى القبط.
[5]- سعاد ماهر، النسيج الإسلامي، القاهرة، 1977، ص. 27.

صورة 8: قطعة "أ" تحمل عبارة "طراز إفريقية"، سوريا، القرن 6 م

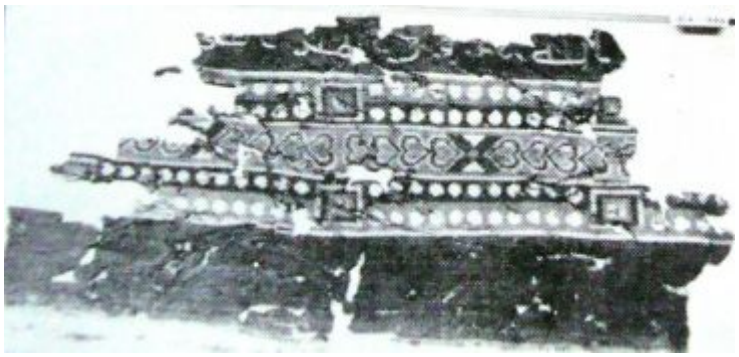

قطعة "ب" تحمل عبارة "مروان أمير المؤمنين"، سوريا، القرن 6 م

(عن سعاد ماهر، النسيج الإسلامي)

أما قطعة الخليفة المعز لدين الله فموجودة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة وهي من الكتان وليس بها زخرفة، ولكنها تتضمن سطرا من الكتابة الكوفية نصّه: "بسم الله الملك الحق المبين وصلى الله على [محمد] خاتم النبيين وعلى آبائه الطيبين بركة من الله وغبطة ويسر وسرور وسلامة وسعادة وجلالة وعصمة وتأييد وتوفيق لعبد الله أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطيبين وأبنائه الأكرمين وسلم تسليما مما عمل بالمنصورية سنة خمس وأربعين وثلثمية" وقد عثر عليها في حفائر الفسطاط. وهي تعتبر أقدم قطعة قماش فاطمية، وقد نسجت قبل أن يفتح الفاطميون مصر ولكنها وصلت إلى تلك البلاد عن طريق التجارة أو جاءت مع المعز نفسه عند حضوره إلى مصر[1]. هكذا، وبعد هذه الجولة الخاطفة عبر مختلف مراحل تطوّر الطراز في العصر الإسلامي، يمكن أن نقول أن شريط الطراز هذا هو عبارة عن وثيقة تاريخية هامة تمكننا من معرفة الأحداث من خلال ما هو مكتوب، حيث يبدأ بالبسملة أو الدعاء أو بهما معًا، ثم ذكر اسم الخليفة وولي عهده أو وزيره، ثم تاريخ الصناعة، ثم اسم مركز الصناعة وأحيانًا اسم ناظر الطراز، أو الذي قام بالصناعة، أو التطريز، إضافة إلى التعرف على دور الطراز المكتوبة في أشرطة الطراز، وكذلك الأساليب الزخرفية وطرق الصناعة.

[1]- عبد العزيز مرزوق، الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د.ت.، ص. 127